شعر الاستصراخ الأندلسي

الرؤية في قراءة الجمالي والتشكيل

الأستاذة فتيحة دخموش

المدرسة العليا للأساتذة - قسنطينة/الجزائر

تقديم :

يعد شعر الاستصراخ ومعه شعر رثاء المدن والمماليك الزائلة، وكذلك شعر الحنين من أبرز المضامين الشعرية التي جسدت ما يسمى "بالتجديد الموضوعي" في الأدب الأندلسي وهو تجديد يمس "تلك الموضوعات التي أبدعها الشعراء الأندلسيون بعد أن استقروا في الأندلس وتكونت لديهم مشاعر الوطنية الأندلسية، التي أنتجتها البيئة الأندلسية بعد أن استقلت بأحداثها التاريخية وتميزت بهمومها الإقليمية التي أفرزها موقعها الجغرافي المنعزل – نسبيا - عن العالم العربي في المشرق "[1]، فهي إذن موضوعات أفرزتها الظروف التاريخية الخاصة بالأندلس والتي تختلف عن الظروف التاريخية التي عرفتها بلاد المشرق، ذلك أن سقوط المدن وزوال الدول محنة ابتليت بها الأندلس دون المشرق، الأمر الذي جعل شعراءها يبادرون إلى طلب النجدة من دول أخرى في محاولة أخيرة لإنقاذها.

ويعنون لشعر الاستصراخ- كما يقول د. رضوان الداية- بعناوين متعددة مثل " الاستنفار والاستنجاد والاستصراخ واستنهاض الهمم، وإنما يراد به الشعر الذي نظمه شعراء الأندلس، وهو دعوة إلى الجهاد والدفاع ، سجلوا فيه الأحداث التاريخية التي جرت بين أهل الأندلس وبين الدول المعادية التي كانت تهاجم البلاد الأندلسية منفردة أو مجتمعة، أو متحالفة مع بعض الجهات الأوروبية ... ووصفوا النكبات التي أصابت الأندلسيين من ويلات .. ومن هنا كان وصف المآسي في هذا الشعر جزءا متمما لدعوات الشعراء المنادية بالإغاثة والعون واستدراك حال العرب والمسلمين"[2] .

"وكان صوت الشعراء في هذا الموضوع صوتا يصدر في معظمه عن وجدان الأمة وظروفها القاسية، ويصل بين أجزاء الأمة ويستعرض الهمم، ويدعو إلى الجهاد حتى لا يضيع رسمه، لقد أدى

الشاعر في هذا القصد واجبه في التنبيه والنداء ودق ناقوس الخطر وتغطية الجانب الإعلامي في هذه القضية الخطيرة ." [3]

وقد علق د. رضوان الداية على هذا النوع من الشعر فقال : " وقد تلونت أشعارهم بحسب المواقف وخطورتها، وبحسب طبيعة الشاعر، وحماسه أسلوبه الشخصي، ولكنها جميعا كانت مؤثرة، معبرة عن وجدان الأمة صادقة في توصيل الفكرة، وبلوغ القصد على جانب من الحماسةوالانفعال "[4] .

ويمكن القول : إن شعر الاستصراخ الذي أخذ ظهوره يشتد وقصائده تكثر أواخر العهد الموحدي، قد ولد من رحم شعر رثاء المدن والمماليك الزائلة الذي برز بزورا واضحا زمن ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري على إثر ما حدث لهذه الدول من نكبات وسقوط، حيث صاحب الشعر هذه الأحداث ورثى الشعراء هذه الدول الزائلة بالعديد من القصائد التي يمكن اعتبار بعضها في هذه الفترة، والفترة التي تليها (عصر المرابطين) أولى صيحات الاستصراخ التي ستعلو في العهد الموحدي إثر ضعف هذه الدولة وحصول ما يعرف بحركة انهيار المدن الكبرى بعد الهزيمة الكبرى في موقعة "العقاب" سنة 609 هـ، أين سقطت المدن الأندلسية الكبرى" كإشبيلية "،"بلنسية" ، "قرطبة" وغيرها ولم يبق في أيدي المسلمين سوى إقليم غرناطة، حينها أدرك الأندلسيون أنها النهاية وجاء شعر الاستصراخ ليجسد هذه النهاية . في هذه المرحلة التاريخية بالذات تبلورت القصيدة الاستصراخية ونضجت فنيا، حيث أذكت المحنة لوعة الشعراء واستثارت قرائحهم فبكوا مدنهم بعد سقوطها الأخير في يد النصارى، وتفجعوا على ضياعها ورثوها ووصفوا مآسيها واستصرخوا المسلمين لإنقاذها في محاولة يقف اليأس أو الأمل وراءها .

انطلاقا مما سبق يتضح لنا أن علاقة شعر الاستصراخ بشعر رثاء المدن ،علاقة امتداد وتداخل وامتزاج أحيانا، غير أن قصيدة

الاستصراخ لابد أن تقوم إلى جانب الرثاء والبكاء والتفجع، على مضامين الاستصراخ والتوسل وطلب النجدة وهي غرضها الأساسي، ولاتسمى قصيدة استصراخ إلا إذا هيمنت عليها هذه المضامين.

الظواهر الموضوعية في شعر الاستصراخ:

لاشك أن لهذا النوع من الشعر جملة من الخصائص المضمونية التي تميزه عن بقية الأغراض الشعرية الأخرى وإن اشتركت في بعضها مع أغراض أخرى كشعر الحنين وشعر رثاء المدن والمماليك الزائلة، والقصيدة الاستصراخية تتألف عادة من مجموعة من الوحدات المترابطة ترابطا عضويا سواء من جهة الموضوعات التي تتناولها أو من جهة الحالات الانفعالية التي تشيع فيها.

أما الموضوعات التي تتناولها القصيدة الاستصراخية، فتأتي غالبا مشكلة من الآتي:

▪ **الحماسة:** وهو أول طابع نقف عليه في معظم قصائد الاستصراخ ويقصد به تلك الحماسة العالية المرتفعة وتلك الحرارة وذلك العنف الذي نلمسه في ثنايا شعر الشاعر وهو يدعو إلى الجهاد ويستنفر الهمم لاسترداد ما سلب وهذا ما يتجسد في أول قصيدة "ابن الأبار" السينية الشهيرة التي يقول في مطلعها مخاطبا "أبا زكريا الحفصي" أمير تونس إثر حصار "بلنسية" من طرف "خايمي الأراغواي" سنة635 هـ

أدركْ بخيلكَ خيل الله أندلسا إن السبيلَ إلى مَنجاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيزِ النَصرِ ما فَلَمْ يزلْ منك عِزٌ النصر مُلتَمَسَا
وحاشِ مما تعانيه حْشَاشتُها فطالما ذاقت البَلوىَ صباحَ مَسا
طهرْ بلادكَ منهم إنهُم نجَسُ ولا طهارةَ ما لم تغسلِ النجسا
وأوْطئِ الفيلق الجرارَ أرضَهُمْ حتى يطأطئَ رأسًا كلٌ من رَأَسَا
وانصُرْ عبيدا بأقصى شرقها شَرِقَتْ عيونُهم أدمُعًا تهمي زَكًا وخَسا(5)

و جانب الحماسة مجسدا - أيضا- في بعض أبيات قصيدة "أبي موسى هارون بن هارون" التي دعا فيها أمير المسلمين "المعتضد بالله السعيد" وكافة المسلمين من أهل العدوة لنجدة المدينة المنكوبة :

يا أهلَ وادى الحما بالعُدوة انتعشوا
هذا الذمَّاء فقد أَشفى به سَقَما
ماذا يُبْطئُكم عنا وحُقَ لكم
أن تُبصروا دارَ قومٍ أصبحت رِمَما
وحَقُّنا واجبٌ فالدينُ يَجمعنَا
مع الجِوار الذي مازال مُنْتظمَا
إن تنصرونا فإنَّا مُنشدون لَه
لا يُرْغم الله إلا أنف منْ رَغِمَا
فتحُ الجزيرة مما سَنَّ أوَّلُكم
فلتُثَبِّتُوا للهُدَى في أرضنا قِدَمَا
كونوا لها خَلفًا منهم وإن نَفَدُوا
ولا تبالوا أطال العهد أم قِدما
لاعُذر في تركها للكفر مسلمة
إن الزمان وأنتم فيه ما عقِما (6)

- **رثاء المدينة المنكوبة ورسم الصورة المأساوية** التي وصلت إليها المدينة المستغاث لها وكذا وصف المآسي التي حلت بالمدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الأعداء،وفي أثناء هذا الوصف يعمد الشاعر دائما إلى المقارنة بين أحوال المدن المنكوبة قبل سقوطها وبعد سقوطها، مركزا على التحولات في الجانب الديني : خروج الإسلام منها وحلول الكفر محله، تحول المساجد إلى كنائس، حلول صوت النواقيس والأجراس محل صوت الآذان، يقول "ابن الأبار" مركزا على هذا العنصر في سينيته:

ياللجزيرة أضحى أهلها جَزَرَا
للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة
يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة
تثنى الأمان حذارًا والسرورَ أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأُنُسَا
وفي بلنسية منها وقرطبة
ما ينسف النفس أو ما ينزف النَّفَسَا
مدائن حلها الإشراك مبتسمًا
جذلانَ وارتحل الإيمانُ مبتئِسا
وصيرتها العوادى العائثات بها
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسا
ومن كنائس كانت قبلها كنُسَا
يا للمساجد عادت للعدى بيَعًا
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها
مدارس للمثاني أصبحت دُرُسا (7)

ونجد المعنى نفسه في مرثية "أبي البقاء الرندي" الشهيرة ، أين يقابل الشاعر دائما بين الصورة الأولى للمدن المفقودة ،والصورة الثانية ويبكي عليها ويتفجع لسقوطها، يقول:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية

قد أسلمت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما

فيهن إلا نِواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدان [8]

- **مديح المستغاث به واستصراخه** قائدا كان أم جماعة

كما فعل" ابن الأبار"في سينيته التي تتكون من ثمانية وستين بيتا منها ما يقرب من ثلاثة وعشرين بيتا في رثاء بلنسية ووصف سوء أحوالها والباقي في مدح الأمير الحفصي "أبوزكريا" واستصراخه، يقول في ذلك:

صِلْ حبلها أيها المولى الرحيمُ فما

أبقى المراسُ لها حبلا ولا مَرَسا

وأحي ماطمَسَت منه العداة كما

أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام سرت لنصر الحق مستبقا

وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا

وقمت فيها بأمر الله منتصرا

كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا

هذي رسائلها تدعوك من كثب

وأنت أفضل مرجو لمن يئسا

ملك تقلدت الأملاك طاعته

دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا

يا أيها الملك المنصور أنت لها

علياء توسع أعداء الهدى تَعَسَا

وقد توارثت الأنباء أنكَ مَنْ

يحي بقتل ملوك الصُفر أندلسا

طهر بلادك منهم إنهم نجس

ولا طهارة ما لم تغسل النجسا (9)

ومما قاله لسان الدين "بن الخطيب" في مقدمة إحدى قصائده التي يستصرخ فيها كافة المسلمين في المغرب ويستعطفهم لإنقاذ الأندلس :

أإخواننا لاتنسوا الفضل والعطفا

فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا

وإذ بلغ الماء الزبى فتداركوا

فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا

تحكم على سكان أندلس العدا

فلهفا على الإسلام ما بينهم لهفا

أنوما وإغفاء على سنة الكرى

وما نام طرف في حماها ولا أغفى ؟! (10)

ويقول الشاعر" ابن المرابط الأندلسي" مستصرخا بني مرين في المغرب:

أبني مرين وأنتم جيراننا

وأحق من في صرخة بهم ابتدي ؟

فالجار كان به يوصي المصطفى

جبريل حقا في الصحيح المسند

أبني مرين والقبائل كلها

في المغرب الأدنى لنا والأبعد

كتب الجهاد عليكم فتبادروا

منه إلى فرض الأحق الأوكد (11)

ويستعين الشاعر في بناء قصيدة الاستصراخ بعناصر أخرى مكملة لمضمون الاستنجاد والتوسل ، من ذلك الاعتماد على الوعظ والإرشاد وضرب الحكمة والاحتجاج بالحوادث التاريخية والتضرع

إلى الله وطلب الصبر والسلوان والعون على العدو ، والملاحظ على أشعار الاستصراخ أن أغلبها قد سجل على منوال واحد يجمع العناصر السابقة ، حتى غدت نماذجها مألوفة في أدب هذه المرحلة.

أما الحالات الانفعالية التي تعتري هذا النوع من القصائد الاستصراخية، فتتوزع عبر عاطفتين أساسيتين:

الأولى شخصية ينطلق منها الشاعر و تكون واضحة في هذا اللون من الشعر، تتردد بين اليأس و الأمل مع غلبة اليأس، يقول د. رضوان الداية في ذلك : " يتردد الشعراء في هذا الشعر بين اليأس و الأمل و نجد أن الشاعر في القصيدة الواحدة يغرق في اليأس و تسود أمامه أيام المستقبل، ثم نجده يندفع مع الأمل ثانية، و لكن هذا الأمل لم يكن ليعدو الأماني لأنه حينما يتحدث عن المأساة يتحدث عن شيء وقع و حدث، و حينما يصدر شعره عن الأمل فإنما يصدر عن شيء يتمنى أن يكون، و لهذا نجد الشاعر يغلب عليه اليأس و إن لم يغادر الأمل."[12] ، كما تسري في الشاعر عاطفة حزينة إلى جانب حماسته و ثورته على الوضع المتردي، يقول د.رضوان الداية في هذا الصدد أيضا:" يشعر دارس أدب رثاء المماليك أن أولئك الشعراء يصدرون عن عاطفة أسى عميق و يظهر لنا الحزن في ثنايا القصيدة و يلف الأبيات جو قاتم من الجزع....و يبدو الخوف واضحا، و يصاحب ذلك كله حنين جارف إلى تلك الديار مختلطا بالبكاء و بالأمل في العودة إليها، و لكن اليأس أغلب."[13]

أما العاطفة الثانية، التي تطالع قارئ هذا الشعر، فهي العاطفة الدينية التي كثيرا ما يضرب الشاعر على وترها من أجل التأثير في المتلقي و تحقيق الهدف الإبلاغي من هذا الشعر وهو إقناع المستغاث به بضرورة إنجاد المدن المنكوبة، وتتجسد هذه العاطفة في تلك النبرة الدينية العالية، في وصف مظاهر التحول من الإسلام إلى المسيحية و

من الإيمان إلى الكفر، و في الإلحاح على عنصر الدين و التركيز على العقيدة و الإيمان في تحقيق النصر.

و قد يصل شاعر الاستصراخ بالعاطفة الشخصية و العاطفة الدينية إلى مستوى استثارة المشاعر الإنسانية عامة، عندما يركز على تصوير معاناة المنكوبين و محنتهم، فيصور بشاعة القتل و الأسر والسلب و هتك الأعراض و ما إلى ذلك من أصناف العذاب التي ترفضها الإنسانية و تتأثر لها النفس البشرية.

شعر الاستصراخ: الرؤيـــة و التشكيل الجمالـــي:

تتجلى شعرية قصيدة الاستصراخ الأندلسية في مظهرين أساسين: مظهر الدلالة، ومظهر التركيب و داخل كل مظهر من هذين المظهرين، مجموعة من العناصر يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا : الرؤية : و الرؤية في هذا اللون من الشعر وليدة التجربة الجماعية مع نكبة السقوط، فهي لا تختص بشاعر مفرد فقط ، بل تتعداه إلى الجماعة ، إنها رؤية جماعية يصدر عنها عموم شعراء الاستصراخ، و هي كل ما يشكل الشعور الفردي و الجماعي بالفقد و تتلخص في عنصرين أساسين:

- **وصف المعاناة**: فشعراء هذا الغرض يركزون في تصويرهم لمعاناة المدن المنكوبة وأهلها، على الجانب المأساوي من محنة هذه المدن، كمبدأ التحول من الإيمان إلى الكفر، و مبدأ الشرف و الحرمة و القداسة و ما تمثله هذه القيم و الرموز في وجدان العربي المسلم.
- **المكان**: يحتل المكان بنية أساسية في القصائد الإستصراخية الأندلسية، و يعد أداة فاعلة فيها ، حيث نجد شعراء الاستصراخ يستخدمونه بكثافة عالية من أجل التعبير عن معاناتهم، فيسجلون ما يصيب ذلك المكان من خراب و دمار و يكثرون من البكاء

عليه و يعبرون عن حنينهم الجارف إليه و غربتهم الأسرة في الابتعاد عنه، لقد حول هؤلاء الشعراء المكان إلى قضية و هم يصورون مأساة سقوط المدن و ضياعها، فلا تكاد تخلو مرثية أو قصيدة استصراخية واحدة من تكرار هذه الصورة، صورة المكان- المدينة أو الوطن- يقول فوزي سعد: " و الشاعر في رثائه لجزيرة الأندلس يصدر عن شعور وطني عميق، فنجد في رثائه صورة الوطن الأم أو الجزيرة بمعناها العام، و لكننا قد لا نحس في رثائه تلك العاطفة القوية التي تبدو في رثائه لمدينته يبكيها بدموع حارة، و يبدو في صورة العاشق الذي فقد حبيبته إلى غير رجعة فظل طول عمره يندبها و يبكيها ونحس كما لو أن قطعة غالية قد انتزعت من جسده يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان شاهد عيان يرصد ما يجري أمامه بدقة، ويصف مدينته وصفا صادقا يمتزج بالحسرة والألم على ضياعها." (14)

ثانيا : الظواهر الجمالية في شعر الاستصراخ :

إذا كان الهدف من الشعر الجيد -عند حازم- هو إحداث الغرابة وتوليد المفارقة في المتلقي، فإن شعر الاستصراخ قد حقق من تلك الغاية الشيء الكثير، فهو وإن كان يستمد أهميته من جلال المناسبة التي قيل فيها وإن كانت معانيه مألوفة مكررة ، " لكنه في أغلب نماذجه كان شعرا جيدا يتسم بتدفق العبارة و حلاوة الجرس وقرب المأخذ وإذا كان حظ معانيه من الابتكار ضئيلا وحظ صوره من الابتداع قليلا ، فان نماذجه في مقابل ذلك كانت مفعمة بأصدق العواطف حافلة بأحر المشاعر "(15) ،التي تلونت بها العبارات فبدت الأشعار معها طريفة متميزة .

وتكمن شعرية قصائد الاستصراخ عامة في كيفية إبراز ذلك الجانب المأساوي من سقوط المدن الأندلسية ومعاناة أهلها من ظلم

العدو، فالشاعر يعتمد في تحقيق غاية التأثير في الملتقى على تقنيات أسلوبية خاصة تعمل على نمو النص الاستصراخي وامتداد دلالته منها:

- **توظيف أسلوب الحكي والسرد :** فأكثر قصائد الاستصراخ تتسم بالطابع القصصي،حيث تصبح فيه القصيدة قصة شعرية ، وكون النص الاستصراخي ينقل مراحل سقوط المدن والأحداث المختلفة التي تتعلق بذلك والحالات الشعورية التي تغمر الشاعر ومن معه ، فإنه يحيلنا إلى كونه وصفا للأحداث في قالب قصصي،ومنه تبدو السردية غالبة وواضحة في معظم القصائد ، فالشاعر يحكي عن المحنة ، يسرد الأخبار ويخبر في سرد وقائع اغتصاب المدن،ويصف معاناة أبناء هذه المدن مكثرا من نعوت القسوة والظلم تأكيدا منه للتجربة وتثبيتا لها ، وشاعر الاستصراخ يركز كثيرا على هذا العنصر – الحكي والسرد – لاستمالة الممدوح المستغاث به مستعينا بأفعال تفيد الحركة والتحول مثال ذلك الأفعال الواردة في سينية "ابن الأبار" التي مثلنا بها سابقا : **"أضحى أهلها" / "أمسى جدها "/ "ارتحل الإيمان" / "صيرتها العوادي"/ "يا للمساجد عادت"/ "وللنداء غدا أثناءها جرسا"** وقس على ذلك في بقية النماذج التي صيغت على هذا المنوال .

والمتتبع لملامح البنية السردية والقصصية في القصيدة الاستصراخية الأندلسية ، يلاحظ انتقالها في الغالب الأعم من العام إلى الخاص في إطار علاقة الكلي بالجزئي ، أي الانتقال من مأساة الوطن بأكمله (الأندلس) في بداية القصيدة إلى مأساة المدينة الواحدة أو المدن المتعددة (بلنسية ، قرطبة ، شاطبة ، حمص ... الخ) في ثنايا القصيدة أو في نهايتها ونستطيع أن نمثل لذلك بنونية "الرندي" التي ركزت في البداية على محنة الوطن الأندلس ثم سرعان ما راحت تفصل في وقع هذه المحنة على مدن هذا الوطن وأقاليمه ،يقول" الرندي":

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له

هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الإسلام فارتزنت

حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية

وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه

ونهرها العذب فياض وملآن[16]

كما يتجسد الانتقال من الكل إلى الجزء (الأندلس بلنسية ، قرطبة) في سرد الوقائع في سينية "ابن الأبار" أيضا، يقول فيها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

ياللجزيرة أضحى أهلها جزرا

للحادثات وأمسى جدها تعسا

تقاسم الروم لانالت مقاسمهم

إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا[17]

هكذا يتحدد أمامنا الفضاء الحقيقي في معظم الشعر الاستصراخي، إنه الأندلس الجريحة ، وهو فضاء يعبر عن الفعل الاستنجادي التوسلي من أجل إنقاذها ، أما الزمن – زمن هذا الشعر – فيتلخص في زمن الضعف والانهيار ، وأما الشخصيات البطلة في هذه القصائد فهي كل ما حوته هذه الجنة الضائعة من بشر وحجر ، إنها

الشيوخ والنساء والأطفال ضحايا الأسر، إنها المساجد التي تحولت إلى كنائس، إنها الحدائق النضرة التي تحولت إلى خرائب بائسة .

لقد حقق شاعر الاستصراخ ، من خلال عنصر السرد و الحكي ، مسألة الإثارة وتحقيق اللذة في هذا النوع من الشعر الجاد وذلك من خلال إبراز تفاعل الأحداث وتباينها .

- **المقابلة والمطابقة** : تعتبر المقابلة من العناصر الأساسية في شعرية قصائد الاستصراخ وهي تعمل على نمو النص وتوليد الدلالة، يقول "حازم القرطاجني ":

"إن المعاني تقترن على أساس المضادة والمخالفة " [18]، فشاعر الاستصراخ وهو يصف حال الأندلس عامة أو المدن المنكوبة التي سيطر عليها النصارى يعتمد على عنصر المقابلة أو المقارنة بين ماضي المدينة وحاضرها ، بين دخول الشرك وارتحال الإيمان، بين ما أصاب أهلها من حزن وما اعترى الأعداء من فرح، بين مأتم الإسلام وعرس الكفر ، ويظهر ذلك من خلال الإكثار من ألفاظ المطابقة في أسلوب القصائد عموما مثل : **"المأتم /العرس" ، "الأمان / الحذار"، "السرور / الأسى"،"الإشراك / الإيمان" ، "المساجد / البيع" ، "الآذان /الجرس" ، "الرجاء / اليأس "**...

كما يقابل الشاعر ويقارن بين ماضي المدينة وصورتها المشرقة وبين حاضر المدينة وصورتها الكئيبة ، وهذا مانجده مجسدا في النماذج السابقة وغيرها ، والملاحظ أن هذه المقارنة تأتي ممزوجة بلهفة الشاعر وحسرته على ماضي المدينة ، مما يؤكد أن أسلوب المقابلة يعمل على تكثيف التجربة وتوليد المفارقة ، كما أنه يزيد النص الاستصراخي تماسكا ويغني دلالته، فالجمع بين الأضداد في هذا اللون من الشعر ليس من الاهتمام بالزينة بقدر ماهو جزء من التجربة.

- **الارتكاز على المجاز والتشبيه والاستعارة** : بهدف تركيز التجربة وكل ذلك يتم بواسطة الصورة التي تشحن بأبعاد دلالية

ونفسية وجمالية في آن واحد. ويعتني شاعر الاستصراخ بالصورة "بوصفها تقنية فاعلة من تقنيات الاتصال الجماهيري ، والتأثير في المتلقي ، وخاصة المتلقي المسلم في الأندلس وخارجها وفي زمن الشاعر ، لتحريك مشاعره وضمان تعاطفه مع الأندلسيين واستثارة حميته لنصرتهم ومساعدتهم وأكثر ما تتجلى هذه التقنية لدى عرض الشاعر مجموعة من المشاهد المؤثرة تمثل ما حل بالأندلسيين بعد استيلاء العدو على مدنهم والذي ينعم النظر في هذه المشاهد يتخيل الشاعر ممسكا بآلة تصوير تلفزيوني وينتقل بعدستها من مشهد إلى مشهد ، وكأنه يعيش في عصرنا عصر " إعلام الصورة" مما يدل على أن الشاعر قد قصد فعلا أ ن يستخدم قصيدته للقيام بدور إعلامي جماهيري "(19)

وكثيرا ما تعتمد الصور ة في القصيدة الاستصراخية على تشخيص المعنوي وتجسيد المجرد ، عن طريق الاستعارة ، مثال ذلك ما نجده في سينية "ابن الأبار" من هذه الصور:**" أمسى جدها تعسا "، " مدائن حلها الإشراك مبتسما " ، " ارتحل الإيمان مبتئسا "، "أنسا ما ضعف منها الطرف يستوحش"** ... الخ ، حيث أدت هذه الصور الاستعارية دورا هاما في تحقيق عنصر الدهشة و المفاجأة ، والإحساس بجماليتها وقوة تأثيرها في النفس وذلك من خلال تشخيص المعنويات : **" الجد " الإشراك " ، " الإيمان "** ، وإضفاء بعض الصفات الإنسانية عليها ، فجمالية هذه الصور تكمن في تحويلها المعاني العادية إلى معاني مؤثرة وموحية ، مما يجعلها صور استعارية شعرية فاعلية وحركية بفعل التشخيص والأنسنة ، والشيء نفسه نجده مكررا إذا تجاوزنا قصيدة "ابن الأبار" إلى بقية الأشعار الاستصراخية حيث يسترعي انتباهنا تلك القدرة على تصوير الأحاسيس الذاتية وتجسيدها وتحويل المشاهد إلى انفعالات يتقمصها المتلقي بعد أن يفاجأ بها ،إضافة إلى استخدام تقنية التشخيص التي تقوم على الاستعارات مثلما

يتبدى لنا في نونية "الرندي" الشهيرة ، وبالذات في الموضع المخصص لوصف المدن الأندلسية التي سقطت ، حيث يصور الشاعر" الإسلام "و"المحاريب" و"المنابر" أشخاصا يندبون الأندلس وينوحون عليها :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الإلف هيمان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثى وهي عيدان (20)

فالتشخيص هنا يخدم مقاصد الشاعر وغايته في التأثير في الملتقى وإثارة المزيد من الحزن الإنساني على فقد تلك المدن وبالتالي الحمل على إنقاذها والاستصراخ لنجدتها.

أما الصورة التشبيهية ، فقد لعبت هي الأخرى دورها في القصائد الاستصراخية، وتعدت قصدية الإيضاح إلى تحقيق هدف آخر يخدم سياق التجربة - سياق التفجع والاستصراخ – وذلك من خلال رسم صور مشاهد النكبة والمعاناة وتوجيه نداء الاستغاثة واستعطاف المستغاث به، مثال ذلك :

ياراكبين عتاق الخيل ضامرةً

كأنها في مجال السبق عُقبان

وحاملين سيوف الهند مُرهفة

كأنها في ظلام النقع نيرانُ

يارُبَ أم وطفل حيل بينهما

كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان(21)

غير أن كثيرا من القصائد الاستصراخية "لا تكون في حاجة إلى المبالغة في استخدام محسنات بيانية إضافية من استعارات وكنايات

وتشخيص وغيرها لتوضيح الصور لأن الصور في حد ذاتها تمثل المأساة في أدق تصوير وأوضحه ، بل إن واقعية هذه الصور والمشاهد هي مصدر أساسي للتأثير في القارئ

والمشاهد "[22] ، وهنا تلعب الصورة الوجدانية الخالية من التراكيب الاستعارية والتشبيهية الدور الأكبر في تصوير الحدث كقول "الرندي" من قصيدته :

يا من لذلة قوم ، بعد عزهم

أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم

واليوم هم في بلاد الكفر عيدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان [23]

فهو مشهد مأثر، مشهد قوم ذلوا بعد أن كانوا ملوكا فأصبحوا الآن عبيدا في بلاد الأعداء.

- اتسام هذا النوع من الشعر عموما بحرارة التجربة وتوهجها وصدق العاطفة والإحساس الحزين والحسرة القاتلة والنبرة الحماسية المرتفعة ، إضافة إلى اعتماده على بعض الأدوات والمؤثرات الفنية الخاصة كالتكرار والترديد والجناس وكلها تحقق وظيفة شعرية عالية .

نخلص في الأخير إلى أن الشعر الاستصراخي الأندلسي يمثل نموذجا حقيقيا للعمل الإبداعي الذي تتعانق فيه الوظيفة الإبداعية مع الوظيفة الإبلاغية ،وإذا كانت الوظيفة التبليغية أو الاتصالية مقصودة في هذا النوع من الشعر لذاتها بين مرسل هو الشاعر (المستغيث) ومتلق هو الممدوح (المستغاث به) قائدا كان أم جماعة ، فإن ذلك لا

يعني أن الشاعر في هذا الغرض يصب اهتمامه على هذا الجانب الاتصالي فقط ، بل نراه يحرص في الكثير من هذا الشعر على الجانب الجمالي والوظيفة الشعرية ، وبالتالي يجمع بين ما هو مفيد (تحقيق الغاية في طلب النجدة والإغاثة) وما هو ممتع (التأثير في الملتقى وتحقيق المتعة الفنية)، وهذا مانراه محققا في كثير من قصائد الاستصراخ على غرار قصائد "ابن الأبار" و"ابن الخطيب" التي حققت الجانب الإبلاغي الاتصالي بوصفها أداة فعالة في طلب النجدة والاستغاثة وسجلا تاريخيا خالدا لما أصاب المسلمين من أحداث في تلك الفترة (الجانب التوثيقي) ، كما حققت هذه القصائد أيضا الجانب الجمالي من خلال ما حوته من عناصر جمالية وتقنيات فنية عالية تتجسد خاصة في التركيب الشعري والظواهر الخاصة كالمحسنات المعنوية واللفظية والتكرار والترديد والإيقاعات الحماسية العالية والتصوير المعادل للانفعالات وكذا العمق وحرارة العاطفة ، لقد عبر هذا الشعر- حقا- على ذلك التجديد الموضوعي في الأدب الأندلسي وتلك الخصوصية الشعرية الأندلسية بشكل يجمع بين المهمة التبليغية والمتطلبات الفنية التي أضفت على تلك المهمة مسحة جمالية أهلتها للجمع بين الإفادة والإمتاع .

الهوامش و الإحالات :

1) بن سلامة الربعي . محاضرات في الأدب المغربي والأندلسي ، منشورات جامعة منتوري قسنطينة ص 79 .

2) الداية ، رضوان. في الأدب الأندلسي. ط 1 ، دمشق : دار الفكر ، 2000 م ص 160

3) نفسه. ص. 161.

4) نفسه . ص. ن .

5) ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي .قراءة وتعليق عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر ، 1985 ص 395.

6) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب . قسم الموحدين. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، بيروت : دار المغرب الإسلامي . المغرب دار الثقافة ، 1985 . ص 380-382 .

7) ابن الأبار. المصدر السابق .ص 395 – 396 .

8) المقري التلمساني ، أحمد بن محمد .نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .تحقيق إحسان عباس ، 1968 .487/4.

9) ابن الأبار. المصدر السابق .ص 397-399 .

10) ديوان لسان الدين ابن الخطيب (ط المغرب) ص 677 عن" رضوان الداية "في "الأدب الأندلسي" ص 169-170 .

11) تاريخ ابن خلدون . بيروت : منشورات الكتاب اللبناني، 1968 م ، 412/7-413.

12) الداية ، رضوان .المرجع السابق. ص 171 .

13) نفسه .ص 175 -176 .

14) فوزي، سعد عيسى. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين .ط1 .الإسكندرية : دار الوفاء للطباعة والنشر .2007 م ، ص 179.

15) الدقاق ،عمر ملامح الشعر الأندلسي. ط1. لبنان – بيروت/سورية حلب: دار الشرق العربي، 200 م 1427 هـ ص 244.

16) المقري التلمساني .المصدر السابق. 487/4 .

17) ابن الأبار .المصدر السابق .ص 395 .

18) القرطاجني ، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ط 2. بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1981 م.ص 86 .

19) جرار،صلاح قراءات في الشعر الأندلسي. ط1 .عمان - الأردن : دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، 2007 م 1427 هـ . ص 125 .

20) المقري التلمساني .المصدر السابق. 487/4 .

21) نفسه .ص (ن) .

22) جرار ، صلاح . المرجع السابق .ص 127 .

23) المقري التلمساني .المصدر السابق. 4/ 487 .